النقدالثقافى عند عبدالله الغذامي

Views of Abdullah Al- Ghathami about Cultural Criticism

د. محمد ناصر مصطفى

قسم الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة سرجودها

nasir.mustafa@uos.edu.pk

د.سميع الله

جامعة التربية لاهور

samiullah@ue.edu.pk

Abstract

Literature plays an important role: either in the form of poetry or prose. Those who deal with it; are no doubt; serving a lot for the society. In each and every society, there are different types of traditions and cultures, according to which they live. No doubt in it that the literature depicts the way of life and culture of any nation. There are the people who keep an eye on the writer, authors and poets and guide them towards the right path of the literature. They are known as "critics". It is well known that there are different types of criticism; and the cultural criticism is one of these types. For the article I have chosen a very well known Saudian Critic "Abdullah Al- Ghathami". The topic of discussion is; "Views of Abdullah Al-Ghathami about cultural criticism". I have divided the topic in three sections: The first section is consisted on the biography of Abdullah Al-Ghathami. The second section is about the critical cultural environment in which Ghathami lives and third and last is about his views about cultural criticism followed by conclusion and bibliography.

Keywords: Cultural criticism, Ghathami, Critics, Triditions.

إن مظاهر العولمة والحداثة بدأت تكتسح الدول كافة وبشتى الوسائل والأشكال، إلاّ ان حركة دخولهاإلى المملكة العربية السعودية بقت متذبذبة، فهذاالمجتمع متحصن بالتقليدية

والمحافظة التي لا تسمح لماهودخيل ان يغزوه لاسيماإذاماوجدفي هذاالدخيل تعارضاًمع القيم الإسلامية وعبدالله الغذامي ابن هذه البيئة المحافظة إلاانه يؤمن بالتحول والتغييروالاختلاف الثقافي، فهومن روادالنقدالحديث في الخليج العربي، يثيرفي طروحاته ومشاريعه النقدية والثقافية الطرف الآخرللدخول معه بحوارثقافي في محاولة لإقناعه بضرورة تلك المشاريع وإدخالها حيزالتطبيق. ولم يكن الغذامي، بطبيعة تطلعه وجهوده النقدية والثقافية الحداثوية، وحيداً في الساحة الثقافية السعودية، بل كان يشاركه في ذلك، وبدرجات متباينة، عدد من النقاد من أمثال عبد الفتاح بومدين وعبد الله الفيفي ومحمد حسن عواد وهذا الأخير يمثل مرحلة متقدمة للتحديث في المملكة العربية السعودية سبقت مرحلة الغذامي ولذااخترت " النقد الثقافى عندعبدالله الغذامي"موضوعالبحثي الذي يشتمل على ثلاثة مباحث وهي حياته والبيئة الثقافية النقدية التي يعيش فيها الغذامي والنقد الثقافي عنده.

١. مكونات شخصية عبدالله الغذامي:

الدكتور عبد الله محمد الغذامي أستاذ النظرية والنقد في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الملك سعود من مواليد ١٩٤٦م، في منطقة عنيزة السعودية. التحق بالمعهد العلمي بعنيزة حتى الثانوية١٩٦٥، وحاز على لسانس لغةعربية في كلية اللغة العربية في الرياض١٩٦٩. ابتعث إلى بريطانيا في الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٨ وحصل على الدكتوراه من جامعة اكستر عام ١٩٧٨،ثم عمل في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ١٩٧٨ إلى ١٩٨٨حيث تولى تدريس مواد النقد والنظرية. رأس قسم الأعلام ثم قسم اللغة العربية. وفي عام ١٩٨٨انتقل إلى جامعة الملك سعود في الرياض حيث يشغل لحد الآن درجة أستاذ النقد والنظرية.كماعمل نائباً للرئيس في النادي الأدبي، وقداسهم في صياغة المشروع الثقافي لهذا النادي من خلال المحاضرات والندوات المؤتمرات.

٢. البيئة الثقافية النقدية التي يعيش فيها عبدالله الغذامي:

منطقة الخليج العربي عموماً والمملكة العربية السعودية خصوصاً سعت في الوصول إلى ما وصلت إليه الدول العربية الأخرى، وكان سعيها بمثابة الخروج من فترة السبات الطويلة التي خيّمت على منطقة الخليج العربي.ان الطبيعة الجغرافية والاجتماعية في المملكة العربية السعودية فضلاًعن كونها ارض الأماكن المقدسة عند المسلمين في أنحاء العالم كافة أوجب على أهلها، فيما يبدو، قدراً أعلى من الالتزام بالمنهج المحافظ في شتى ميادين الحياة، الثقافية على وجه الخصوص، بالقياس إلى غيرهم من المسلمين في أصقاع الأرض"إل اان هذه العوامل مجتمعة لم تمنع فعل التأثر الثقافي لمختلف تيارات الفعل المعرفي والأيديولوجي التي كانت ولا تزال تحتشد وتمور بها مساحات البلاد العربية والإسلامية"[١]

نلاحظ ان الدراسات النقدية قليلة نسبياً، والسبب في ذلك يعود إلى مفهوم النقد في البلد السعودي، فالأدباء اعتادوا ان تْمجد أعمالهم، ودرجوا على ان تكون غاية النقد مديحاً وإطراء لاذعاً أو قدحاً، كما ان النقاد فهموا ان النقد إظهار المساوئ، والتنقيب عن المثالب وشهر السلاح بوجه المنتقد، وكلا الفريقين غير مصيب فالذي يخشى ان يحاسب، وان يوزن إنتاجه ليس بأديب وخوفه يدل على قيمة عمله.كذلك الناقد الذي يرى رسالة النقد سبّاً وشتماً ليس بناقد، إنما هولعان هجاء،ومثل هذا الموقف الذي يتخذه هؤلاء وهؤلاء لايظهرالحقيقة،ولايدفع الأدب،أو يشجع عليه.[٢]

قبل اكتشاف النفط وفي مبتدأ ظهورها كانت المملكة السعودية تعاني أوتواجه"عقبات ثلاثة وقفت في وجه نموالتعليم في بدء ظهور"المملكة العربية السعودية" تغلبت أما العقبة الثانيةفكانت تتصل ببعض العقليات التي لم تقتنع بالفكرالحديث وبالتقدم الحضاري، وبفائدة المدارس العصرية، وقد خُيّلَ إلى هذه الفئةان الرسم هوالتصوير، وان تعلم اللغات الأجنبية ذريعة إلى الوقوف على عقائد الكافرين، أو هو وسيلة إلى إضعاف أخلاق الشباب.لقد واجه الملك عبد العزيز هذه المشكلة، واستطاع ان يوضح لتلك الفئة ان ما يريده من المدرسة العصرية هو ان تقوي العقيدة الدينية في قلوب الطلاب، وتجعل المملكة الوليدة

في مصاف الدول القوية المتعلمة المتحضرة. فهذه العقبةجعلت المملكة العربية السعودية تسير ببطء نحو التطور الثقافي والفكري وتواجه معارك عنيفة بين المحافظين والحداثيين، وهذا أمر طبيعي أن يحدث في المملكة السعودية لما تتمتع به هذه البلاد من مكانة مقدسة لدى المسلمين في سائر العالم، ودخول أي فكر غريب إليها سيواجه بالرفض المطلق.الدولة على اثنتين، وتحاول تذليل الثالثة. الأولى: تتعلق بموارد الدولة، ذلك ان الملك عبدالعزيز لم يكن يملك المال حين نْودي به ملكاً للبلاد العربية السعودية، وما كانت موارد الدولة البارزة تأتي عن طريق الحجاج، وهي موارد سنوية لا تسمن ولا تغني من جوع، وما كانت تزيد على مائة ألف جنيه سنوياً، بل كان من سوء حظ الدولة الجديدة ان ولادتها صادفت موجة الكساد الأكبر في العالم، وما رافقته من أزمة اقتصادية خانقة. وطبيعي ان مشروعات الدولة جميعها تتأثر بقلة الموارد، وتنكمش وكذلك كان أمرالتعليم"٣ وهذه العقبة أزاحها اكتشاف النفط، وبذلك حُلت مشكلة المال والدخل العائد إلى المملكة العربية السعودية.

وفي مقابلة مع الدكتورالغذامي نجده يوضح ذلك بقوله"لوكانت ولادتي في المغرب العربي أو في بلاد الشام،هل سأواجه هذه المعارك والتحديات وحتى الشتائم من قبل المتشددين والأصوليين في المملكة العربية السعودية"٤

أماالعقبة الثالثة: فكانت في مستهل ولادة المملكة قوية كبيرة إلاأنهاتتضاءل وتذوب مع مرور الزمن.وتتمثل في توافرعناصرالمدرسة الرئيسية، فالمملكة بلد شاسع اقرب ما يكون إلى القارات منه إلى الدولة الصغيرة،والسكان منثورون هنا وهناك وفق الظروف الجغرافية والمعاشية،ممايجعل إقامة مدارس معدودات . وفق القدرة المالية للمملكة يومها. لا يخدم إلا أعدادا قليلة،من ثم يحتم الإكثارمن المدارس، رغم ان المدرسة لم تكن تضم اكثرمن عشرات،ورجال التربية المختصون كانوا في حكم الندرة إذا لم نقل الندرة ذاتها.على الرغم من ان المملكة العربية السعودية ((لم تبخل... بالمال فقد دفعت الكثيرلتتغلب على هذه العقبة وما تزال تدفع.من اجل الوصول إلى النهج الصحيح للنهضة الأدبية والثقافية، وهذاالانفتاح على الآخرساعدالمملكة في الدخول إلى الميادين الثقافية المختلفة.

ان ناقدنا الدكتور الغذامي،هو وليد هذه البيئة،وآراؤه عن الحالة الثقافية والحداثة في مجتمع محافظ، يُنظر إليها من جانب المحافظين المتزمتين على انها تطرف ثقافي وأخلاقي لم يعتده الواقع الثقافي للمملكة العربية السعودية.فالمجتمع السعودي لايتقبل الغريب والدخيل لاسيما الحداثة،فكيف به ان كان هذاالغريب بأفكاره ومشاريعه من داخل المملكة العربية السعودية . اعني الدكتورالغذامي . وجاء بأفكارتتحدث عن الحداثة وعن النقد الثقافي و تأنيث اللغة وغيرها من الموضوعات التي لم تألفهاالأجواءالثقافية للمملكة العربية السعودية،ان الدكتورالغذامي كان جريئاً في طرح هذه المشروعات في هذاالمجتمع المنغلق والمحافظ،وفي تقبل ردودأفعال هذا المجتمع، ولقد"أشارعلماء الاجتماع إلى ان المجتمع التقليدي سوف يتلاشى تحت ضغوط الحداثة والانفتاح في المجتمع العربي، إلاان شيئاًمن هذا لم يحدث،بل شهدنا على العكس من هذا تماماً،وهوظهورونموالاتجاهات الأصولية في المجتمع العربي، مما حدا بهؤلاء إلى مقدمة جديدة أطلقوا عليها مصطلحاً جديداً سموه"المجتمع ما بعدالبنيوية".ان الطرح السابق يعد غيرواقعي نظراً، لان الأسس التقليدية التي قام عليها المجتمع الحديث لم تتغيربدرجة كبيرة، كما ان الحداثة مهما كانت قوية فانها لا تزيل هذه الأسس التقليدية كلياً، فهناك مجتمعات ما زالت تحافظ على هويتها التقليدية في ظل الحداثة الجديدة"٥.ومن هنا تأتي المعارك العنيفة بين الحداثة وأنصارالتقليدية،ولا شك ان المجتمع السعودي من المجتمعات التي واجهت الحداثة بالرفض والحرب.

نجد ان الدكتورالغذامي قد ساهم مساهمة فعالة في تقدم النهج الثقافي لا في المملكة العربيةالسعودية وحدها وإنما في الخليج العربي بأسره، وهي محاولة منه في مواكبة الركب الثقافي الذي يبدو واضحاً في المغرب العربي والعراق.وللدكتورالغذامي مكانةعلمية وأدبية مديدة تواصلت على مدى ثلاثة عقود وأسهمت في تأسيس قاعدة قوية للثقافة لدينا، واصبح النقدالأدبي والثقافي حقيقة قوية ومتميزة، فلم تأت هذه المكانةمن الهواء،إنماجاءت بفضل إسهام الدكتورالغذامي وآخرين معه لتصبح التجربة من النضج ما يؤهلها ان تصبح في مكانة بارزة ومؤثرة تستحق الثناء والتقدير٦.

الدكتور الغذامي يؤسس لمشاريعه بفكرة التغيير والاختلاف والثقافة المتغيرة، يقول في التغيير" ان الرجل الحق هو من لا تحكمه كلمته ولا تستعبده مواقفه الظرفية، ولكنه ذلك الكائن القادرعلى التحول والتنوع وتوجيه نظره نحو المستقبل، والرجل منا ليس من هوعند كلمته، ولكنه الذي ليس عند كلمته، هو من تعجز كلمته عن تقييد فكره، والتحول شهادة حياة وحيوية، ولذا فأنني ابن التحول والتنوع حيثما تطلب الأمر،والثقافة ليست سوى معركة دائبة مع التحول والتجدد، وارجوا ان أكون حياُ بهذا المعنى وبهذه العزيمة"٧.

ان الدكتور الغذامي، الذي أبتدأ جهده النقدي والثقافي بالخطيئة والتكفير، وواصله في مشروع النقد الثقافي وحكاية الحداثةيملك معادلة نقدية يبحث فيها دائماً عن خفايا النص التراثي، ويسمح لعقله بالتحرر والشك في مختلف المجالات الثقافية والنقدية.

وهكذا فان الدكتور الغذامي "كلما وجد الساحة الثقافية راكدة فجر قنبلة ليحك سبات النائمين في الطرقات، هذا الوصف لا يخلو من بعض الحقيقة وان ارتدى لبوس المجاز . وكتاب "حكاية الحداثة" ليس التفجير الوحيد الذي اقدم عليه الغذامي بجرأة متناهية، فهو سبق ان آثار جدلا واسعاً في أول كتاب له وعنوانه "الخطيئة والتكفير"وقدمه إلى الساحة الثقافية في العام ١٩٨٥، والكتاب طرح نقد ما بعد البنيوية . وهو العمل التشريحي الذي طرح في الكتاب للمرة الأولى على مستوى العالم العربي، وهذا الكتاب اختصم حوله الأقربون والبعيدون وظل مادة للتداول الصحافي والأكاديمي وقتاً طويلاً"٨

والدكتور الغذامي في كتاباته يحاول ان يستفز الآخرين من اجل إدخالهم في دوامة الحوار الثقافي، وهو يخاطب العقل ويدربه على السجال دون ملل أو كلل أو تضجر من الآراء المطروحة، أو بعبارة أخرى يجعل من الحوار والمناقشة أمرا مقدساً . الدكتور الغذامي . فقد ادخل الحداثة في المملكة العربية السعودية . وإذا ما أردنا ان نؤسس للخطاب النقدي عند الدكتور الغذامي ، فلابد لنا من فهم شخصية هذا الرجل...وكيف يفكر..وكيف يقدم أفكاره ومشاريعه...؟في البدء لا بد لنا من القول ان الدكتور الغذامي لا يصادر، ولا ينكر جهود الآخرين في ميادين النقد الأدبي والثقافي، يقول في ذلك :"أنا احكي بالدرجة الأولى عن تجربة

انتمي أنا إليها ، هذا الكلام هو نقد لي ولذاتي بالدرجة الأولى وليس نقداً لغيري، أنا اقدر جهوداً كثيرة صارت وتصير وسوف تصير، وهذه كلها جهود يجب ان نرحب بها باستمرار ولو اننا جميعاً اتجهنا وجهه واحدة لقضينا على مستقبلنا الثقافي، من المهم التعدد، من المهم التنوع، من المهم وجود أنواع من الحماسات المتنوعة، لكن أنا أتكلم عن منطقة أنا أعيش فيها أسعى إلى تدارك أمرها وأمر علاقتي مع القارئ وعلاقتي مع جيلي وعلاقة جيلي مع قرائه"٩.

والدكتور الغذامي يترك أفكاره حرة طليقة في رحاب الثقافة، تنمو وتعيش وتنفتح على الآخرين، وعملية الانفتاح "الزماني" و"الفكري" التي يشير إليها الدكتور الغذامي تمثل حالة من حالات الوعي الجاد في استقبال الموضوعات والأفكار التي قد يطرقها الناقد . يقول الدكتور الغذامي:" مررنا بفترة عصيبة ما بين عام١٩٨٥إلى١٩٩٢، سبع سنوات كانت صعبة جداً في تاريخ الثقافة في بلادنا، وكانت المعارضة قوية جداً"١٠.

ولقد سعى الدكتور الغذامي إلى تأسيس خطابات تقوم على نوع من التعددية والديموقراطيةالذي يفرز الطبقية من جهة عبر تعزيزه لنسق من الخطابات، يرى إنها خطابات شريفة راقية، في حين ان هناك خطابات يرى أنها دونية وناقصة، بينما الذي يؤثر في الناس هو هذا الذي يسمى دونياً وناقصاً. وعلى هذا الأساس فان الدكتور الغذامي يُبقي الأبواب مشرعة ومفتوحة في جانب الحوار والتنوع والتعدد في الآراء ويبقى لكل رأى أولوياته في الدفاع عن نفسه بواسطة ما يمتلك الطرف المعني من الأدلة والأدوات .

وإذا ما تتبعنا الحالة الثقافية في المملكة العربية السعودية نجد من جهة ان ثمة أُناس يسعون إلى إدخال الثقافة في المجتمع السعودي ، ومن جهة أخرى نجد التحديات التي تحاول عرقلة إدخال التطورات الثقافية إلى هذا المجتمع. ، وهذه التحديات هي التي "تغدو حقلاً مشمولاً في مصطلح الثقافة، إنها ليست سوى مجموعة معقدة من الظروف والإشكاليات التي ننتجها بإرادتنا ورغبتنا الواعية وغير الواعية ... نحن نخلق هذه التحديات، ونهئ الظروف المناسبة لإنتاجها . نحن نجذرها ونحكم حلقاتها في أعناقنا ... ان التحديات واحدة مع وقائع

سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين ..والتحديات جدار بنيناه بأيدينا، وجعلنا سبيكته من أفكارنا وأوهامنا فهي إحدى معطيات الثقافة التي هي(نحن)، ولا يمكن. بذلك. ان تكون التحديات سابقة على الثقافة، كما لا يمكن قبول استراتيجية البحث عن الثقافة وسط غزو التحديات، وكأن الغياب للثقافة والحضور للتحديات، أو كأن البحث إنما هو بحث عن دور لهذه الثقافة لا غير"١١.

لذلك ولدّت، حركة الحداثة في المملكة العربية السعودية تصادماً بين فريقين متنافسين، أحدهما يحاول ان يفرض هيمنته على الآخر، فريق الحداثة المتمثل بنقاد الحداثة، والذي يرى انه من الضروري إدخال الثقافة والحداثة في هذا المجتمع. واعني به المجتمع السعودي . ويسعى جاهداً إلى إقناع هذا المجتمع بضرورتها . أما الفريق الآخر والذي يمثل التحدي الرافض لهذه الحداثة، فحاول ان يُخرجها من هذا المجتمع، ان لموقفه هذا بواعث دينية واجتماعية، تحّد من هذه الحركة الحداثية .

وإذا ما انتقلنا إلى مشروع الغذامي الثقافي، والمتمثل في النقد الثقافي، فسنجد ان هذا المشروع طُرِح عبر الصحافة ومن خلال جملة من الندوات العلمية والمؤتمرات الأدبيةوبعد ذلك قام الدكتور الغذامي بإخراجه بحلته الجديدة بكتاب أطلق عليه اسم " النقد الثقافي " .

٣. النقد الثقافي عند عبدالله الغذامي:

في البدء لا بد لنا من القول ان الدكتور الغذامي على درجة عالية وعميقة من الوعي بمجتمعه الذي يعيش فيه، وهو يعلم ان هنالك قوى تحاول ان تصادر جهده الثقافي والأدبي وتصادر آراءه وتستلبه . سواء على الصعيد المحلي. أي داخل المملكة العربية السعودية. أو على الصعيد الخارجي العالمي، لذلك وجب عليه ان يسلك منهجاً يحافظ به على الثقافة العربية، انطلاقاً من اعتزازه بهويته العربية ومن فهمه العميق لتراثه فشرع من خلال عمله الأكاديمي في تحقيق طموحه بتأسيس مشاريع نقدية وثقافية عربية عبر تأصيلها تراثياً، على الرغم من ظهور هذه المشاريع في الآداب الغربية . لذا نجده يحاول الربط بين النظريات الغربية

والعربية، ويفسر بالبراهين والأدلة ان هذه النظريات التي ظهرت في الغرب لها جذور في الأدب العربي القديم .

الدكتور الغذامي هو"أول من حاول تبني مفهوم النقد الثقافي في معناه الحديث الذي حدده فنست ليتش واستخدم أدواته لاستكشاف عدد من الظواهر الثقافية العربية التي لم تستطع مختلف مدارس النقد الأدبي السابقة التصدي لها"١٢

ان الغذامي كان يشتغل على النقد الثقافي حتى من قبل فترة التأسيس، أو بعبارة أخرى كان يمارس النقد الثقافي قبل بلورة الفكرة الكاملة للكتاب، ويذهب الدكتور عبد الله ابراهيم إلى ان"الغذامي مارس النقد الثقافي منذ البداية، ودعوته بكتاب قائم برأسه ليست بياناً لما سيأتي وإنما هي تتويج لجهد طويل، تبلورت ملامحه عبر ممارسة مباشرة، إلى ان استقامت دعوة فكرية يريد منها التنبيه إلى ضرورة التخلص من الانحباس داخل أسوار مغلقة تحول دون ان تنتقل الممارسة النقدية إلى ممارسة ثقافية لها فائدة عملية في التاريخ والواقع"١٣.وربما هذا هو السبب الذي جعل من الدكتور الغذامي يعزف عن كتابة الشعر، بعد ان بدا شاعرا، وها هو يعترف، ويقول "أنا شاعر فاشل، لم أتمكن من المواصلة مع الشعر"١٤.

أحس الدكتور الغذامي ان الأدب العربي يمتلك الكم الهائل من النظريات والمشاريع، التي لا بد من تأصيلها، والتباهي بها وبالأدب العربي عامة، وانه الأسبق في اكتشاف النظريات والمشاريع من الغرب مع اختلاف مع نقاده في المصطلحات والمسميات فقط . ولتأصيل هذه المشاريع واكتشافها لا بد من وجود " النهضة " التي يرى الدكتور الغذامي انها "حينما تُطرح في الخطاب العربي المعاصر فهي تطرح بوصفها مصطلحاًأوبوصفها حقبة تاريخية تمثل مرحلة في الثقافة والتاريخ العربيين...ان ما اطرحه هنا هو الزعم بان كلمة "النهضة"هي قيمة شعرية مجازية تصدق عليها كل قيم المجاز والمتخيل البلاغي بوصفها ثورة ثقافية، أصابها ما يصيب الثقافة كلها بكافة مصطلحاتها كافة من نسقية ومجازية ينفصل فيها القول عن الفعل وتكتسب الكلمة قيمة شعرية لا عملية ولا منطقية،وتبدأ سيرة حياة الكلمة وكأنما هي حبكة سردية

ونظام مجازي يترتب مصيرها مع ميلادنا، وتنتهي مجازياً مثلما ابتدأت مجازياً، ربما إنها مشروع خيالي محكوم بالنسق الثقافي المتشعرن ... وانه لا ريب في ان الجميع يتفقون على ان مشروع النهضة العربية لم يتحقق، ولما لا يزل حلماً ومطلباً ثقافياً واجتماعيا، على الرغم من مرور عقود ومشاريع منذ ان طرح سؤال النهضة، وبدأ حلم اليقظة،... تعددت أسباب عوائق هذه النهضة، وهي متعددة فعلاً"١٥.

ومن المشاريع التي يركز عليها الدكتور الغذامي، قضية المرأة ودورها في المجتمع،والحداثة،والأنساق الثقافية،والاناالفحولية الطاغية،وقصص تكاذيب الأعراب ....الخ وعلى الرغم من ان الدكتور الغذامي جاء بحملة عنيفة على النسق الثقافي السائد، وكشف عيوبه إلا انه كان واقعاً تحت تأثير هذا النسق قبل طرحه وعلى ما يبدو فان الدكتور الغذامي قد اعترف صراحة بأنه كان خاضعاً للنسق بقوله "إننا كائنات نسقية"١٦.

ولقد حاول كسر النسق الثقافي من خلال ما نسبه إلى نازك الملائكة، من قصيدة مؤنثة وكسر لعمود النسق الشعري وإحلال نسق بديل ينطوي على قيم جديدة تنتصر للمهّمش والمؤنث المهمل، وتؤسس لخطاب إبداعي جديد يتطبع بالطابع الإنساني، وله سمات النسق المفتوح على عناصر الحرية الإنسانية.

أما عن دور المرأة في المجتمع السعودي، فالملاحظ من خلال مؤلفات الدكتور الغذامي، انه يسعى إلى جعل المرأة في المجتمع العربي عموماً والمجتمع السعودي بوجه خاص،تأخذ دورها في أعمالها المختلفة، وهل من ضير ان تمارس المرأة أعمالها كالرجل وان تتمتع بحقوقها التي منحها الإسلام لها. هكذا كان يُنظر إلى المرأة في المجتمع السعودي، قبل ان يحدث انقلاب تمثل في دعوة المثقف السعودي إلى مشاركة المرأة في بناء المجتمع، وتُوج ذلك بإدخال المرأة في الانتخابات وتقليدها بعض المناصب السياسية والدبلوماسية في المملكة العربية السعودية، من هنا نجد ان "دعوة الأدباء أثرت في زحزحة المرأة عن وضعها القديم الذي اتصف بهوانها واحتقارها، وكادت تزول من الألسنة كلمة "كرمك الله" حيث يرد ذكرها في حديث، واستطاعت تلك الدعوة ان تعيد إليها شيئاً من شخصيتها واحترامها"١٧. ومهما

يكن من أمر، فان المرأة في المجتمع السعودي بدأت بالدفاع عن حقوقها الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في مجتمع فحولي، يساندها في ذلك بعض الأدباء والمثقفين، كالدكتور الغذامي .

لقد انفرد الدكتور الغذامي بمقولته المشهورة "إعلان موت النقد الأدبي"ومن الملاحظ ان اغلب النقاد والأدباء وحتى على المستوى الأكاديمي، يميل إلى النقد الأدبي في تحليله للخطابات المختلفة، سواء أكانت هذه الخطابات شعرية أم نثرية .أما الدكتور الغذامي فقد حاول من خلال مشروعه، إحلال النقد الثقافي محل النقد الأدبي.

ومن الملاحظ ان كتابات الدكتور الغذامي تحريضية، استفزازية، فهو ـ أي الغذامي ـ كمن يمارس العملية الكتابية النقدية لتأسيس ظاهرة نقدية حديثة في الوطن العربي، أما كتاباته الأخيرة المتمثلة بالنقد الثقافي، وحكاية الحداثة، والثقافة التلفزيونية فهي أشبه ما تكون بالدخول إلى التطبيق المجتمعي الثقافي . وعند هذا الحد لا بد ان نتذكر اننا أمام باحث قدم ذاته في الماضي كشاعر، ومنظر للشاعرية،لكنه تحول اليوم إلى باحث مفكر يريد لنقده الثقافي ان يدشن حضوره الخاص في سباق "الفكر النقدي "بالمعنى الفلسفي العميق والشامل، ولا بد ان نصغي إليه ونثمن جهوده ونحترم اطروحاته حتى ولو كنا نختلف معه حولها كلياً أو جزئياً.

المتتبع لكتابات الغذامي، يجد ان كتاباته الأولى والمتمثلة بالخطيئة والتكفير، تنم عن تأثر كبير بالنظريات الغربية ، كالتفكيكة التي جاء بها جاك دريدا، وبدا كأن الغذامي يعتمد على المناهج الغربية في التأسيس لمشاريعه الثقافية،مما قد يوهم الآخرين بان الغذامي يحمل بصمات هوية ثقافية غربية، بيد ان الأمر ليس كذلك فأول ما يلفت النظر في مسالة الهوية هو إعادة تسميته المصطلحات ، فقد اعتمد (التشريحية) بدلاً من (التفكيكية) وفقاً لمفهوم خاص به يرى ان هذه التشريحية: "تختلف عن تشريحية دريدا . تلك التي تقوم على محاولة نقض منطق العمل المدروس من خلال نصوصه، وأنا لم اعمد إليها هنا لأنها لا تنفعني في هذه الدراسة"١٨.

نلاحظ ان الدكتور الغذامي، عندما يطرح أفكاره ومشاريعه نجده يحاول ان يعيد إلى الثقافة والنقد العربي هويتها وأصالتها، إذ يوضح ان النظرية الغربية التي ظهرت عند النقاد الغربيين ، لها اصل وجذر لدى النقاد العرب القدامى، مع اختلاف في المصطلحات والمسميات، هذا على المستوى الخارجي، أما على المستوى الداخلي، فان استقرار قبائل ومجتمعات الخليج العربي كان له الأثر الواضح في تحديد هويتها "وبهذا لم يدخل القرن العشرين إلا وقد استقرت مجتمعات الخليج على تقسيمات وتصنيفات ومصفوفات موروثة من حراك الهجرة المتصلة وملابساتها السوسيولوجية مع ما يتصل به من أمكنة وثقافات"١٩.

الدكتور الغذامي يربط بين استقرار القبائل والبدو في المجتمع السعودي وبين بداية بروز مظاهر الحداثة، إذ يقول "ان رمزية تأسيس الهجر في بداية التأسيس السعودي كان يكشف عن وعي بشروط التحديث وقيام دولة ذات نظام مدني وطني، هذه أولى علامات الحداثة في مجتمعنا، وان كنا لم نكن نستخدم مصطلح الحداثة لوصف ذلك الحدث التاريخي فان هذا يعود إلى عدم ظهور هذا المصطلح في ذلك التاريخ . ولكن عدم ظهور المصطلح لا يعني عدم انطباقه على الحالة، وكلنا نعرف ان أبا تمام مثلاً لم يسمع قط بمصطلح الحداثة ومع ذلك فاننا نصف عمله بالحداثة... ان التأسيس الواعي لهو أحد سمات البناء مما يجعل عقلية التأسيس عقلية حداثية بالضرورة"٢٠.

فلا شك ان استقرار الدولة وقيام حركات من التحديث فيها لابد ان يرتبط أولا باستقرار حالة الهوية، فالدولة أو الأمة لا تستطيع ان تقيم علاقات مع الآخر، ان لم يكن لها هوية ثقافية وسياسية واقتصادية واضحة . والدكتور الغذامي، فهو يبحث عن الشيء الثقافي، ويحاول إيجاده عن طريق ما يطرحه من أفكار ومشاريع مختلفة وفيما يتعلق بالهوية المحلية فان الدكتور الغذامي يسعى إلى إدخال الحداثة في المملكة العربية السعودية.و الملاحظ في كتابات الدكتور الغذامي النقدية والثقافية، انه يركز على الجانب النظري والتطبيقي في مشاريعه النقدية والثقافية،وهذا يعني انه يركز على جانب الإبداع الأدبي . وحسب زعمي . ان هذا الذي يجعل من الدكتور الغذامي ناقداً وأكاديمياً متميزاً في طرحه لهذه الأفكار، وليس كل النقاد "قادرين

على الإمساك بالنظرية والمنهج فضلاً عن كيفية اللعب بالمصطلح في مواجهة النص الإبداعي أو غير الإبداعي"٢١.

لقد اسكت الغذامي كل هؤلاء نقدياً ونظرياً وان تحدثت مقالاتهم ودراساتهم المنثورة في الدوريات الأدبية المختلفة على ظواهر نقدية وثقافية، إلا ان جل هذه الدراسات لا تقدم خطاباً نقدياً نوعياً، بقدر ما تقدم اجتهادات بسيطة للتعليق على قصيدة، أو ديوان شعر أو رواية والنقد حالة أخرى غير هذا التعليق البسيط الذي يتناقض في آرائه بين عمل وأخر،وبين رواية ورواية وقصيدة وقصيدة تبعاً للحالة المزاجية للناقد ومدى صلته الإنسانية والاجتماعية بالمبدع .ومن هنا فان دراسات هؤلاء النقاد تأتي دائما تالية لما ينتجه الغذامي. واعني ان جميعهم يحاولون السبق في العثور على نظرية أو مصطلح طائش يمكن التخفي أو التقنع من خلاله . لكن الغذامي يذهب بعيداً دائماً. فهو تحول من النقد البنيوي إلى النصوصي إلى الثقافي،وبغض الطرف عن اتفاقنا مع مشروعه، أو اختلافنا معه فانه يقدم مشروعاً جلياً له قسماته وملامحه، مشروعاً اسكت الجميع وجعلهم يسبحون في فضاء جزئي يكتفي بمحاورة قصيدة أو رواية، ولا يقدم عملا نقدياً ضخما متميزاً يمكن عبره قراءة الواقع الأدبي السعودي قراءة صادقة شمولية لها أثرها في سياق النقد الأدبي بوجه عام.

وعن علاقة الإنسان العربي مع الغرب يقول الدكتور الغذامي: "علاقة الإنسان العربي عموماً مع الغرب هي علاقة ذات وجهين: علاقة كراهية من ناحية وعلاقة حب من ناحية أخرى،نحن نكره سياسات الغرب وتحيزه، لكننا نحب ثقافة الغرب وفكره، وعلاقتنا مع الغرب اذاً علاقة مضطربة فهو عندما أُبتعد عنا كمستعمر ظل معتدياً علينا سياسياً وفي الوقت ذاته هو مصدر علم ومصدر ثقافة، صورة الغرب عندنا مزدوجة تجمع بين الحب والكراهية في آن واحد،تحب ثقافته وحضارته وتكره سياسته وانحيازته"٢٢.

ان قول الدكتور الغذامي هو بمثابة الرد على أولئك الذين يتهمون الغذامي بأنه تابع للغرب ومؤيد لهم في المجالات الحياتية المختلفة جميعاً، فالغذامي أذن يرفض هوية الهيمنة والسيطرة والانحياز من قبل الغرب، وعلى الرغم من تبني الغذامي الفكر الغربي أو المشروع

الغربي،إلا انه من خلال مشاريعه وأفكاره نجده يحاول تأصيل الفكرة أو المشروع الغربي وربطها بالجذور العربية والتراثية القديمة .ومهما يكن فإننا"نحتاج إلى تنظير عربي نابع من الواقع العربي، يستفيد من معطيات التراثات الإنسانية القديمة، ومن معطيات الحضارات البشرية الحديثة ليعود هذا التنظير ثانية إلى الواقع العربي من اجل تعميق جذوره في حركة التاريخ ومن اجل إرهاصه ليمتد عبر الحاضر ثم دفع حركته الدائبة نحو المستقبل من اجل بناء أمة واحدة كانت من افضل الأمم ولكن علما وثقافة وأخلاقا"٢٣.

والملاحظ ان الدكتور الغذامي، أينما تحرك حرك الساحة الثقافية، يطوعها تحت تصرفه، مع إبقاء الحوار مفتوحاً لمن يدخل هذه الساحة، ويمكن القول ان الأفكار أو المشاريع تشكل بحد ذاتها هوية الدكتور الغذامي، فعلى سبيل المثال اقتران النقد الثقافي باسم الدكتور الغذامي، لانه كان الأسبق بين النقاد العرب في طرح هذا المشروع أو هذه النظرية.

نتائج البحث:

لقد نشأ النقد الثقافي لدى الدكتور الغذامي من باعث ذاتي المتجه بالدرجة الأساس إلى نقد المنجز الذاتي، من خلال محاسبة الذات الإنسانية عما قدمته من فعاليات مختلفة على الصعيد الاجتماعي والثقافي، فالنقد الثقافي مرتبط بالمجتمع وما يقدمه الإنسان من حفريات في الثقافات المختلفة.

ومن خلال الإنسان يتجه إلى النص، وفي هذا الاتجاه يخترق الثقافات المحلية لينطلق إلى الثقافات العالمية دون الآخذ بنظر الاعتبار الجنس أو اللون أو العرق . يميز الغذامي هو ان جهوده تعد النواة الأولى على الساحة الثقافية العربية، ولم يُعنى النقد الثقافي بدراسة الفنون الراقية وإنما تعداها إلى الثقافات الشعبية، وبذلك اتسم بالصفة الشمولية في تناول الآداب المختلفة وهذا مما أدى بدوره إلى التحرر من قيود المناهج التقليدية.

ويرى الدكتور الغذامي أن (النقد الأدبي) بحاجة إلى (النقد الثقافي). يعلن الدكتور عن موت النقد الأدبي وإحلال النقد الثقافي بديلاً منهجياً عنه. ويرى ان الساحة الثقافية بحاجة إلى النقد الثقافي اكثر من النقد الأدبي.

نجد إن الدكتور الغذامي يعترف صراحة بأهمية النقد الأدبي في التأسيس للنقد الثقافي. وأحيانا يرى بان النقد الثقافي أقام مرتكزاته على النقد الأدبي.

احتلت الحداثة في خطابات الغذامي النقدية مكانة بارزة، فقد حاول إدخالها إلى المملكة العربية السعودية على الرغم من وجود معرضين لها وفي مقدمتهم التيار المحافظ الإسلامي والتيار التقليدي، إلا انه كان يمتلك الإصرار في السير بمشروعه للحداثة.

يسعى الغذامي إلى إيصال مشاريعه بكافة الطرق وإلى عامة الناس .ومن هنا فانه يولي أهمية للشعبي على حساب النخبوي والأكاديمي، فلجأ إلى الصورة التلفزيونية والملاحظ ان الغذامي يتكئ على القنوات الفضائية التي تستعرض البرامج التي تكون على تماس مباشر مع المشاهد أو المتلقي.

وان البحث في الصورة التلفزيونية هو التوجه نحو الثقافة البصرية، ومن خلال هذا التحول الثقافي إلى يحمل الدكتور الغذامي رؤية جديدة وطريقة في التوجه النقدي والثقافي، وهو توجه نحو الواقع الحياتي والاجتماعي، ويمكن القول ان المجتمعات التي ترفض الصورة إنما هي ترفض الواقع التي تعيش فيه؛ وذلك لان الصورة هي انعكاس للواقع المعيشي الذي يحيا به الإنسان.

المصادر والمراجع

١– ذاكر آل حبيل تنويعات نقدية على قراءات المشهد الثقافي الراهن في المملكة العربية السعودية، جريدة الكلمة، ع١٧، سنة٤، خريف ١٩٩٧. Http://Www.Kalema.Net

٢– بكري الشيخ أمين، الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت،لبنان ،١٩٨٤ ص:١٥٥

٣– نفس المرجع:١٥٤–١٥٥

٤– بروين حبيب : مقابلة مع الدكتور الغذامي على قناة دبي الفضائية / أجرت المقابلة بروين حبيب ١٢ / ٢ /٢٠٠٤

٥–عاكف صوفان:التأصيل النظري لمفاهيم المجتمع المدني في السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي الخليجي/عاكف صوفان: http://www.adpolice.net

٦– بلا، الخميس: السيرة العلمية للدكتور عبد الله الغذامي :١١ ذو القعدة ع ١٤٢٠

http://www.suhuf.net

٧- مجموعة مؤلفين ،عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن ،وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطني، ط١، مملكة البحرين ، ٢٠٠٣م :١٣

٨- عبده الخال: المرصد الثقافي "حداثة الغذامي" ، مجلة الطليعة، ٥ مايو ٢٠٠٤. http://taleea.com

٩-جريدة الجزيرة: النقد الثقافي هو حرب الأنساق التي تتغلغل فينا / لقاء مع الدكتور الغذامي ، الأحد ٢٦ ذو القعدة ١٤١٩ http://www.suhuf.net

١٠- احمد الزين :مقابلة مع الدكتور الغذامي على قناة العربية الفضائية/أجرى المقابلة احمد الزين في ٧ /٩ /٢٠٠٤ م

١١- ابراهيم عبد الله غلوم: الثقافة في مجتمعات الخليج العربي،عالم الفكر،مجلد٢٧، ع٣،يناير،مارس١٩٩٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت:٧٠

١٢- مسعود عمشوش :النقد الثقافي والنقد الأدبي http://www.jemenitta.com

١٣ - مجموعة مؤلفين ،عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية:٣٩

١٤ - احمد الزين :مقابلة مع الدكتور الغذامي على قناة العربية الفضائية/أجرى المقابلة احمد الزين في ٧ /٩ /٢٠٠٤ م

١٥ - شريف الشافعي :عبد الله الغذامي يناقش" معوقات النهضة في نقد النسق الثقافي" ،جريدة غنون، القسم الثقافي، ع ١٣١٥١ السنة ٤٠ الأربعاء جمادى الأولى ١٤٢٥هـ.

١٦ - عبد الله الغذامي: النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية" ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب ، بيروت ٢٠٠٠ :ص:٢٤٧

١٧- الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية /بكري الشيخ أمين:٢٩١

١٨ - عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية قراءة لنموذج إنساني معاصر مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية ، النادي الأدبي الثقافي ،ط١، جدة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م ,ص: ٨٦، ٨٧

١٩ - ابراهيم عبد الله غلوم: الثقافة في مجتمعات الخليج العربي ، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٧ ع٣،يناير، مارس ١٩٩٩ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت: ٨٥ .

٢٠- عبد الله محمد الغذامي :حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،المغرب، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ ص:٤١، ٤٢ .

٢١- عبد الله السمطي :الذين اسكتهم الغذامي ... نقاد التحولات والمشاريع الثقافية العائمة بين مولاة النقد .. ومجافاة الإبداع ، جريدة الوطن السعودية، ع٢٥٣، السبت ١٧ /٣ /١٤٢٢ هـ

٢٢ - حوار وحيد تاجا :المفكر والناقد السعودي عبد الله الغذامي. http://www.alwatan.com

٢٣ - مازن الوعر : علم تحليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، سنة ٤ ، ع١٤ ربيع الثاني ١٤١٧هـ سبتمبر،أيلول،١٩٩٦، دار الغرير للطباعة والنشر، دبي: ١٩ .